الأبستمولوجيا العرفانية عند "ملا صدرا" وعلاقتها بالحكمة المتعالية

د/ فؤاد بن عبيـــد

قسم العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية.
جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر

ملخص

بتناوله بعض رؤى ومرتكزات الحكمة المتعالية لدى الملا صدرا، يعالج الموضوع مسألة ابستمولوجية تتعلق بالمعرفة العرفانية النابعة من رؤية توحيدية للوجود. وقد تعرضنا فيه إلى التعريف بالملا صدرا وأعماله ومراحل حياته. ثم التعريف ببعض المصطلحات؛ كالأبستمولوجيا، والعرفان، والحكمة المتعالية، مع بحث علاقتها بالحكمة المتعالية عند الملا صدرا. وبينّا أن الحكمة المتعالية منهج تكامل في مزجه بين البرهان والقرآن والعرفان، يتخذ من النص المقدس ضابطا. كما أبرزنا أن مباحث الأبستمولوجيا الصدرائية يتعدى متعلق المعرفة فيها ليشمل الذهني والخارجي، والمادي والمجرد، والدنيوي والأخروي، والمعقول وما وراء المعقول.

Abstract

Mulla Sadra's Mystical Epistemology and its Relation to Transcendental Theosophy

The subject of this present treatise discusses an epistemological problem related to Sufi knowledge. It deals with Mulla Sadra's viewpoints related to transcendental theosophy. We have introduced Mulla Sadra, his main works, and the different stages of his life. And then we moved on to definitions of the main terminology; such as: Epistemology,mysticism (tsawuf), and transcendental theosophy, by discussing its relation to Sadra's Theosophy. As we have explained that Transcendental Theosophy is an eclectic approach, which benefited for its perfection from rational demonstration, al Qur'an and mysticism. We have also stressed the fact that Sadra's epistemological discussions are the object of knowledge which includes the mental as well as the external, the material and the non-

ثم تطرقنا إلى بيان حدود المعرفة ومجالاتها عند ملا صدرا وكذا طرق المعرفة عنده. وأخيرا تعرضنا إلى بعض النماذج النظرية التي أفرزتها الأبستمولوجيا الصدرائية، ليخلص البحث إلى نتائج أهمها:إن الأبستمولوجيا العرفانية للملا صدرا قد أفرزت نظريات عميقة في تفسير الحقائق الوجودية وقضايا المبدأ والمعاد، وكلها مهمة بالنسبة إلى نظرية المعرفة.

material, and the one related to this life and to the hereafter and the rational and the meta-rational, hence, the knowledge based on witnessing would be the most valid knowledge. As we have also discussed the methodology of Sadra, which is based on reason, narration (nakl) and mystical witnessing, and which constitutes a new methodology in the field of theory of knowledge. At the end we have concluded with exposing some samples of the theoretical outcomes of this mystical epistemology, which led to the result that Sadra's epistemology brought out deep theories on existential realities and issues related to emanation and eschatology, all of which are of a great importance in mystical epistemology.

مقدمـة

قد يرد الإشكال الشائع؛ بأن منهج نظرية المعرفة عقلي، والوصول إلى الحقيقة بالعرفان ليس عقليا. إلا أن المتأمل في مباحث الملا صدرا، يجد أن المعرفة بما هي متعلقة بالإنسان المدرك من جهة، وبالوجود من جهة أخرى، وبما هي متجاوزة لحدود الحس والعقل، فإنها لاتنحصر بالمنهج العقلي، بل تحتاج إضافة إليه إلى كشف يمثل كمال الحقيقة، وإلى نص مقدس يمثل الإطار الهادي الضابط للحقيقة. لذلك نجد أن صدر المتألهين قد بنى منهجه في حكمته المتعالية، على أساس البرهان والقرآن والعرفان. وهذا ما يتبيّن صراحة في قوله: « ولا يحمل كلامنا على مجرد المكاشفة والذوق أو تقليد الشريعة من غير ممارسة الحجج والبراهين والتزام القوانين فإن مجرد الكشف غير كاف في السلوك من غير برهان كما أن مجرد البحث من غير مكاشفة نقصان عظيم في السير و الله المعين.»1.

في هذا الموضوع نريد معالجة العرفان النظري في مقام الإثبات، الذي يمثل مفهوم الحقيقة بمختلف الاستدلالات في إطارها الفلسفي، مع الفارق بين الفلسفة والعرفان النظري. وعليه يمكننا طرح العديد من الأسئلة في هذا المضمار، منها:

هل تعد الأبستمولوجيا العرفانية أمرا خرافيا؟ أم تمثل طريقا للحقيقة لا يمكن نفيه؟ وكيف هي عند الملا صدرا أهي كافية لإدراك الحقيقة أم تحتاج إلى ما يدعمها ويؤكدها؟ وما مدى حاجة الحقيقة الكشفية للبرهان والاستدلال العقلي وللنص المقدس النقلي عند الملا صدرا؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما نريد معالجته ضمن هذا الموضوع، الذي يتناول جوانب من رؤية الفيلسوف المتأله، تتعلق بالحقائق المعرفية وبطرق المعرفة من خلال الكشف والشهود الذي حصل له بعد تحصيله العلمي الراقي وتعمقه في الفلسفة المشائية والإشراقية. إلا أننا نريد أن نبرز تميّز ملا صدرا ونجاحه في التوفيق بين أدوات البرهان العقلي الاستدلالي، والأدلة النقلية النصية

المقدسة، والشهود الصوفي العرفاني، في ثبوت الحقائق الوجودية وفي إثباتها، وفي بيان أن الاكتفاء بأداة واحدة أو اثنتين دون الكل، أمر مخل بإدراك الحقيقة بتمامها وكمالها، ومظنة لورود الأوهام والمغالطات. كما نبرز قيام مباحثه الأبستمولوجية على أطروحات جديدة، اجتمعت لتنتظم في نسق معرفي واحد، من سنخية واحدة، شكلت رؤية مؤهلة للإشراف على العديد من الإشكالات المعرفية والفلسفية عموما، ولو أن لها حضورا في مباحث من سبقه من المشائية أو الإشراقية، إلا أن طريقة تناوله لها، وبلورته لشتات مسائلها، وطرق الاستدلال عليها، فاقت كل من سبقه دون مبالغة؛ ذلك ما يتجلى فيما طرحه من نظرية أصالة الوجود ووحدته ومراتبه المشككة، ونظرية الحركة الجوهرية، ونظرية اتحاد العاقل والمعقول، وغيرها مما تضمنته مختلف كتبه القيمة سيما كتاب الأسفار.

كما نريد أن نبرز من خلال هذا الموضوع، أن مباحث الأبستمولوجيا عند ملا صدرا، لا تقتصر على عالم الحس فقط، ولا تحصر بما يمكن للعقل تعقله، بل يتعدى متعلق المعرفة ليشمل المادي والمجرد، والدنيوي والأخروي، والمعقول وما وراء المعقول؛ باعتبار أن مباحث الأبستمولوجيا تطال الوجودات الذهنية كما تطال الوجودات الخارجية الحسية، بل تطال الوجودات النقلية عبر الوحي؛ فتتعلق المعرفة بكل ما هو موجود، بل بذات الوجود من مبدئه إلى مآله، في الدنيا والآخرة. وعليه سيكون الكشف والشهود في المعرفة العرفانية، أكثر الأدوات مطابقة للحقيقة اليقينية بحيث يؤدي إلى تذوق الحقيقة لا مجرد فهمها. والملاحظ عند الملا صدرا أنه يقر بضرورة العرفان لتذوق الحقيقة، إلا أنه لا يلغي البرهان عليها، ولا يكتفي في عرضه بالمشاهدات الملكوتية دون بيان أوجه الاستدلال العقلي عليها، متخذا من الوحي الإلهي محورا لكل ذلك، بما يضمن السلامة في الاتجاه المسلوك نحو كل المعارف. وعموما، فعلى السالك طالب

حياة ملا صدرا الزمنية في ثلاثة أدوار[2]؛ وهي في مقولة المتى:

أ . مرحلة تحصيل الحقيقة، أن يرتقي صعوديا . بطرق برهانية قرآنية عرفانية . من أسرار الشريعة إلى أطوار الطريقة إلى أنوار الحقيقة.

تلك بعض ظلال ما تضمنته فلسفة ملا صدرا العرفانية التي سماها الحكمة المتعالية، التي أضحت مذهبا جديدا ومدرسة تلبست بهذا الاسم إلى يومنا هذا. ولبيان بعض مبانيها ومرتكزاتها ورؤاها المتعلقة بمباحث الأبستمولوجيا، ارتأينا أن نبحث الموضوع في خمسة محاور؛ الأول في التعريف بالملا صدرا. والثاني في التعريف بالأبستمولوجيا العرفانية وعلاقتها بالحكمة المتعالية. والثالث في حدود المعرفة ومجالاتها عند ملا صدرا. والرابع في طرق المعرفة عند ملا صدرا. والخامس في بعض ما أفرزته الأبستمولوجيا العرفانية للملا صدرا من مباني الحكمة المتعالية.

أولا: التعريف بالمولا صدرا

ا . مراحل حياته

يعرف مُحمَّد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي في أوساط العامة بـ "الملا صدرا"، ويعرف في أوساط أهل العلم وتلامذة مدرسته بـ "صدر المتألهين". يُعتبر النموذج الرائد للمدرسة الإشراقية للفلاسفة المتصوفين. ولد عام (1571م/979هـ) بمدينة شيراز، وأخذ مبادئ العلم عن أبيه. أكمل دراساته الفلسفية على يد "ميرداماد" (توفي 1040هـ)، ودراساته الأصولية على يد الشيخ بهاء الدين العاملي (توفي 1031هـ). أنهى تحصيله العلمي في أصفهان ثم انتقل إلى العزلة في ضواحي قم ليعود مدرسا إلى شيراز. توفى في (1640م/1050هـ) في البصرة ودفن بها[3].

وقد لخص جوادي آملي العلوم العقلية والنقلية على يد أمثال المحقق ميرداماد والشيخ البهائي.

ب . مرحلة الانزواء والتأمل وترك النشاط العلمي باختياره إحدى قرى قم.

ج . مرحلة النشاط العلمي الجديد من قبيل التدريس والتأليف[4].

أما حياته العقلية التي قطعها في الحركة في مقولة الجوهر، فيمكن جمعها في خمسة مراحل؛ هي:

أ . مرحلة النظر في الأفكار الفلسفية والكلامية.

ب . مرحلة الانتقال الروحي من الكثرة نحو الوحدة وهي السفر من الخلق إلى الحق.

ج . الانتقال الروحي من الوحدة إلى الوحدة، حيث السفر من الحق إلى الحق مع الحق.

د . الانتقال الروحي من الوحدة إلى الكثرة حيث السفر من الحق إلى الخلق. وهذه المراحل الثلاث الأخيرة هي أسفاره الثلاثة المتحققة أيام انزوائه.

هـ . مرحلة التحول الفكري من الكثرة إلى الكثرة والسفر من الخلق إلى الخلق مع الحق وإيصال رسالة الحق وعدم الاحتجاب عن الخلق بالحق تحت عناوين التدريس والتأليف وتهذيب نفوس الآخرين[5].

2 . آراء بعض فلاسفة الغرب في الملا صدرا

في الحقيقة لا نجد لملا صدر حضورا فعالا في فضاء الفلسفة الغربية كما هو الحال في الفلسفة السينائية أو الرشدية. ومع ذلك ذُكر لبعض فلاسفة الغرب آراء حول الفلسفة الصدرائية بيّنت إعجابهم بابتكارات الرجل وإكبارهم له.

«يرى براون Brown في كتابه التاريخ الأدبي لفارس أن صدر الدين الشيرازي تأثر بالأرسطية كما تأثر بالأفلاطونية المحدثة عن طريق السهروردي...لقد عدّل في نهج ابن سينا، وكان جديرا في تخطئته لابن سينا الذي أنكر الحركة في الجوهر، واعتبار ابن سينا لها مجازا في التعبير. لقد تأثر الشيرازي بفكرة ابن عربي في مسألة وحدة الوجود، وإن هما اختلفا في نهاية الطريق. إن نظرية الشيرازي في واجب الوجود تكاد تكون جديدة. ويتفق كل من الأستاذ جب Gibh وبراون Brownوكذلك بروكلمان Broklman أن الشيرازي جامع لفلسفة السهروردي وابن عربي وخلاصة التراث الشيعي. ويصنف المستشرق الألماني ماكس هورتن Horten الشيرازي بأنه واحد من عظام الرجال المجهولين في تاريخ الفكر البشري، وذلك في

مقالته عن الشيرازي. كما أن براون يقرظه بالقول: انعقد الإجماع على أنه أعظم فلاسفة العصر الحديث في بلاد فارس. ولكن الدراسة المستفيضة والأكثر إحاطة هي التي قام بها الأستاذ هنري كوربان Henry Corbin الذي يرى أن ملا صدرا شرح رائعة ابن سينا، كتاب الشفاء. . حكمة الإشراق للسهروردي.. أصول الكافي للكليني.»[6].

ولعل أول من اهتم بآراء ملا صدرا ومؤلفاته هو "كوبينو"، لكن أكثر المتأثرين بملا صدرا وآرائه وابتكاراته وحكمته المتعالية من المشتغلين بالفلسفة في الغرب هو "هنري كوربان" الذي قال: «في رأيي أن "كوبينو" هو أول شخص في العالم الغربي، ...، الذي عرّف هذه الفئة الكبيرة من المفكرين في ملحق كتابه "تاريخ الأديان والفلسفات في آسيا المركزية"... إن مولا صدرا هو لإيران قديس توماها الأكويني لو كان القديس توما يستطيع في الوقت نفسه أن يكون عارفا وحكيما مثل ياكوب بوهمه، إلا أن مثل هذا التركيب لا يمكن أن يتحقق إلا في إيران وحدها»[7]. ومع ذلك لا يعرف عنه الغرب اليوم إلا القليل.

3 . أعماله

من أهم مؤلفاته التي جمعت معظم آرائه، هو: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، الذي عرض فيه جلّ فلسفته. وقد قسمه إلى أربعة أسفار، ذكرها فيه بقوله: « واعلم أن للسلاك من العرفاء والأولياء أسفارا أربعة- أحدها السفر من الخلق إلى الحق.و ثانيها السفر بالحق في الحق.و السفر الثالث يقابل الأول لأنه من الحق إلى الخلق بالحق.و الرابع يقابل الثاني من وجه لأنه بالحق في الخلق...»[8]. وقد ثمّن "هنري كوربان" هذا المصنف الضخم الرائع بالقول: «... "كتاب الأسفار الأربعة العقلية"، وهو أثر نفيس ضخم ...»[9]. يلي الأسفار من حيث الأهمية، كتاب: الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية: وقد أورد فيها المعلومات نفسها التي وردت في الأسفار دون أن يناقش نظريات الآخرين من الفلاسفة. وغيرها من المؤلفات كالمبدأ والمعاد، وتفسير القرآن الكريم . وشرح على أصول الكافي. ومفاتيح الغيب. ورسالة في حدوث العالم. وكتاب المشاعر ،

والعرشيّة. ورسالة التصوّر والتصديق، وغيرها. وقد طبع أكثر مؤلفاته التي يبلغ عددها 32 كتاباً ورسالةً تقريباً.

ثانيا: التعريف بالأبستمولوجيا العرفانية وعلاقتها بالحكمة المتعالية

1. الأبستمولوجيا وحقيقتها عند الملا صدرا

أ . مفهوم الأبستمولوجيا

"الإبستمولوجيا" epistomologie مشتقة من الكلمة اليونانية episteme التي تعني "العلم" أو "المعرفة " والمقطع "logie" الذي يعني في أصله اليوناني logos أي "نظرية" أو "علم"، وبالتالي فإن كلمة "إبستمولوجيا" تعني حرفيًا "نظرية العلم"، أو "علم العلم". ويعرفها "أندريه لالاند" بأنها فلسفة العلوم، والتي تعنى الدراسة النقدية لمبادئ العلوم وفروضها ونتائجها.

وتعتبر الإبستمولوجيا أو نظرية المعرفة أحد فروع الفلسفة الذي يدرس طبيعة ومنظور المعرفة. ومدارسها مختلفة بين التجريبيين والعقليين والواقعيين والمثاليين[10].

وإذا أردنا شمول التعريف وسعته عموما؛ فإنّ المعرفة التي تُعنى بها المباحث الأبستمولوجية هي: حضور نفس الشيء أو صورته الجزئية أو مفهومه الكلي عند موجود مجرد[11]. هذا حتى يطال مفهوم المعرفة ومباحثها، العلم الحصولي والعلم الحضوري والمفاهيم الماهوية والمنطقية والفلسفية.

ب . حقيقة المعرفة عند ملا صدرا

مما تميزت بها الفلسفة الإسلامية في حقل نظرية المعرفة هو تقسيم المفاهيم الكلية إلى مفاهيم ماهوية وفلسفية ومنطقية، ولهذا التقسيم والبحوث المتفرعة عنه دور فعال في الإجابة عن كثير من الشبهات التي طرحت في نظرية المعرفة.

يعتقد الفلاسفة المسلمون بوجود ثلاثة أقسام من المفاهيم: ماهوية، و فلسفية، ومنطقية.

وأول من بسط البحث في هذا الموضوع الملا صدرا. غير أن شيخ الإشراق كان قد سبقه بإعداد أرضية لهذه المباحث . فمن بين آراء ملا صدرا فيما يرتبط بالابستمولوجيا، يرى أن تعريف العلم غير ممكن، لأنه لا يوجد مفهوم أوضح من العلم حتى يعرفه. وقد قسم العلم إلى حصولي وحضوري، معتقدا أن العلم بالنفس حضوري، وأن لليقين مراتب ثلاثا: علم اليقين (العلم البرهاني)، عين اليقين (علم شهودي)، حق اليقين(اتصال وجودي).

يرى الملا صدرا أن للعقل القدرة على نيل الواقع حيث أن للنفس الإنسانية استعدادا لأن تتجلى فيها جميع الحقائق. وقد قسم المفاهيم الكلية . كما ذكرنا سابقا . إلى ماهوية وفلسفية ومنطقية. معتبرا أن المفاهيم المنطقية والفلسفية مفاهيم ثانوية. كما يرى أن المعقولات الثانوية الفلسفية تحكي عن مراتب الوجود وكلما صار الموجود ضعيفا تزداد جهات نقصه وإمكانه وكلما اشتد اتسعت جهات كماله ووجوبه، والوجوب والإمكان بيان لمراتب الوجود.

2 . العرفان وحقيقته عند الملا صدرا

أ . مفهوم العرفان

ورد في المعجم الفلسفي أن العرفان في الفرنسية gnose وفي الانكليزية gnosis وهو العلم بأسرار الحقائق الدينية، وهو أرقى من العلم الذي يحصل لعامة المؤمنين، او لأهل الظاهر من رجال الدين.

والعرفاني Gnostique هو الذي لا يقنع بظاهر الحقيقة الدينية بل يغوص على باطنها لمعرفة اسرارها[12].

وعلم العرفان هو أعلى العلوم؛ موضوعه الوجود المطلق بلا شرط. والعرفان التام ما يجعل العارف لا يرى الحقيقة إلا في الله. «وأنه لما استترت البشرية في نور المعرفة، واتّحد العاقل والمعقول، والعالم والمعلوم، لاحت للعارف منهم حالة في نفسه، ليس في الدلالة اللسانية ما يدلّ عليها، فساق أقرب الألفاظ الدّالّة عليها، مع علمه في الحال الثابت بأن اللّه لا يتّحد به شيء، ولا يحلّ فيه.»[13].

كما يعد علم العرفان من العلوم التي نشأت وتطورت وتكاملت أكثر في أحضان الثقافة الإسلامية، و يعتقد أن بداية تاريخه بالمفهوم الاصطلاحي كان مع الحسن البصري (توفي 110ه)، وقد وصل إلى أوج كماله على يد محي الدين بن عربي، الذي أسس للقسم النظري والفلسفي من العرفان الذي مثّل مصدر استلهام للعرفاء من بعده[14]. فكان« عندما يراد الإشارة إلى أهل العرفان من الناحية الفكرية فإنه يطلق عليهم اسم "العرفاء"، وإذا كان المراد الإشارة إلى الناحية الاجتماعية فإنهم يعرفون بعنوان "المتصوفة"»[15]

ب . العرفان النظري والعرفان العملي

العرفان إما نظري وإما عملي؛ فالعرفان العملي مجاهدة واجتهاد يستهدف الشهود ولمس الحقيقة المنحصرة في واجب الوجود. أما العرفان النظري فيستهدف إثبات الوحدة الحقيقية للوجود، وأن الوجود منحصر فيه تعالى، والعالم كله آيات ومرآت ومظهر له[16]. هذا وقد أشار مطهري إلى ذينك القسمين من العرفان فقال: «1. القسم العملي...فالعرفان في هذا القسم مثل علم الأخلاق...ويسمى هذا القسم من العرفان "بالسير والسلوك"..يوضح للسالك كيف يجب أن يبدأ ومن أين يسلك للوصول إلى قمة الإنسانية المنيعة وهي التوحيد...توحيد العارف يكون في طي الطريق والوصول إلى مرحلة لا يرى فيها إلا الله. 2. القسم النظري يرتبط بتفسير الوجود أي معرفة الله والعالم والإنسان. والعرفان في هذا القسم مثل الفلسفة التي تريد أن تفسر الوجود...ولكن الفلسفة من جهتها تستند في استدلالاتها على المبادئ والأصول العقلية فقط، أما العرفان فإنه يجعل المبادئ والأصول الكشفية أصل الاستدلال ثم يقوم بتوضيحها بلغة العقل وقلمه...الأدوات التي يستخدمها الفيلسوف في حركته: العقل والمنطق والاستدلال، ولكن الوسائل التي يستخدمها العارف هي: القلب والتصفية والتهذيب والحركة الباطنية»[17]

وعصارة القول أن العرفان العملي يمثل تذوق الحقيقة بالسير والسلوك، بينما يمثل العرفان النظري مفهوم الحقيقة بمختلف الاستدلالات في

إطارها الفلسفي. وعموما، يتجلى موضع العرفان العملي في مقام الثبوت، بينما يتموقع العرفان النظري في مقام الإثبات.

ونحن هنا نعالج مباحث العرفان النظري التي تطال المحورين؛ التوحيد (الأسماء الحسنى للواحد - سبحانه وتعالى)، والموحّد (الإنسان الكامل خليفة الله)، دون أن تبحث ذات الله[18].

ج . حقيقة العرفان عند الملا صدرا

إن حقيقة المعرفة العرفانية عند ملا صدرا هي الهداية إلى النور الرباني للوصول إلى معرفة الحق سبحانه، وهي مراتب من أسرار الشريعة إلى أطوار الطريقة إلى أنوار الحقيقة. فالسالك يمر من أعمال إلى أحوال ليصل إلى الأنوار. والملاحظ أن صدر المتألهين يؤصل مبانيه العرفانية بالاستناد إلى إشارات القرآن الكريم؛ فقد ذكر في حديثه عن مراتب الهداية الثلاثة قوله: « الأولى معرفة طريق الخير والشرّ المشار إليه بقوله تعالى: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (البلد: 10)، وقد أنعم اللّه به على كافّة الخلق بعضه بالعقل وبعضه على لسان الكتب والرسل..." وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى (فصّلت: 17)...

المرتبة الثانية هي الّتي يمدّ اللّه بها العبد حالا بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال: وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا (العنكبوت، 69). وهو المراد بقوله: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً.

والمرتبة الثالثة وهي النور الّذي يشرق في عالم الولاية بعد كمال المجاهدة، فيهتدي بها إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل الّذي يحصل به التكليف وامكان تعلّم العلوم، وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الّذي شرّفه اللّه تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكلّ من جهته فقال: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى (البقرة: 120). وهو المسمّى حياة في قوله: أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ. وبقوله: أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ. ووجه انحصار مراتب الهدى في الثلاث: أنّ كلّ مقام

من مقامات الإيمان ومنزل من منازل السالكين ينتظم من أمور ثلاثة: أعمال وأحوال وأنوار، ولا بدّ لكلّ منها هداية يخصّ به»[19].

3. الحكمة المتعالية وميزاتها عند الملا صدرا

أ. مفهوم الحكمة المتعالية

الحكمة الإلهية علم يبحث فيه عن أحوال الموجودات الخارجية المجرّدة عن المادة ... وقيل هي العلم بحقائق الأشياء على ماهى عليه والعمل بمقتضاه ولذا انقسمت الى العلمية والعملية.[20]

أما الحكمة المتعالية فهي مدرسة تختص بتتبع منهج مختلف عن كلّ المدارس المعهودة؛ فلا يُعد منهجها منهجاً مشّائياً بحتاً، ولا إشراقيّاً بحتاً، ولا صوفيّاً، ولا كلاميّاً. ولا هي مدرسة لفلسفةً تجميعيّة، بل تمتلك بناءها الفلسفيّ الخاص المميز، وإن كانت تتضمن مزيجا من كلّ تلك المناهج والمدارس[21].

فهي عند ملا صدرا مزيج من البرهان والعرفان والقرآن. إذ يمثل الوحي فيها المحور الرئيس الضابط لتفسير المكاشفات والاستدلال على الحقائق. قال ملا صدرا: « لما رأيت التطابق بين البراهين العقلية والآراء النقلية وصادفت التوافق بين القوانين الحكمية والأصول الدينية؛...»[22]

ب. ميزات الحكمة المتعالية لملا صدرا:

1. أنها تجمع بين البرهان والعرفان: فبينما نجد الفلسفة المشائية تنكر أحكام الشهود والكشف، والصوفية تسفّه أحكام العقل والبرهان، نجد الحكمة المتعالية تذمّ من يحصر المعرفة بحكم العقل والبرهان، كما تذمّ من يحصرها بالكشف والمشاهدة[23]. وفي الأسفار يعيب على المقتصرين على النظر بقوله: « ...لا على مجرّد الأنظار البحثيّة، التي سيلعب بالمعوّلين عليها والمعتمدين بها الشكوك، يلعن اللاحق منهم فيها السابق، ولم يتصالحوا عليها ويتوافقوا فيها، بل كلّما دخلت أمةٌ لعنت أختها.»[24]. ويشير إلى طريقته في الحكمة المتعالية مشيدا بها في قوله: « ...فأولى أنّ يرجع إلى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة

المتألّهين من الحكماء، والملّيين من العرفاء.»[25] ، ويقول واصفا كتابه الأسفار:« قد اندمجت فيه العلوم التألهية في الحكمة البحثيّة وتدرعت فيه الحقائق الكشفيّة بالبيانات التعليميّة.»[26].

وفي نجاعة طريقته في الوصول إلى الحقيقة يقول:« ... ممّا لست أظنّ أن قد وصل إليه أحدٌ ممّن أعرفه من شيعة المشّائين ومتأخّريهم، دون أئمّتهم ومتقدّميهم، كأرسطو ومن سبقه. ولا أزعم، إن كان يقدر على إثباته بقوّة البحث والبرهان شخصٌ من المعروفين بالمكاشفة والعرفان، من مشايخ الصوفيّة من سابقيهم ولاحقيهم.»[27]. كما برّر تقديمه للبرهان على العرفان في طرح الحقائق، لحاجة المتعلم إلى ذلك، وإشفاقا بمن لم يمتلك بعد استعدادات قبول الكشف، يقول: « ونحن أيضاً سالكو هذا المنهج في أكثر مقاصدنا الخاصّة، حيث سلكنا أوّلاً مسلك القوم في أوائل الأبحاث وأواسطها، ثم نفترق عنهم في الغايات، لئلا تنبو الطبائع عمّا نحن بصدده في أوّل الأمر، بل يحصل لهم الإستيناس به، ويقع في أسماعهم كلامنا موقع القبول إشفاقاً بهم.»[28].

2. أنها تُطابق بين الوحي والعقل: إذ تختلف من حيث النتائج عن المشائين الذين أرادوا تأويل الوحي بما يتلاءم مع العقل، وعن الإشراقيين الذين أعدموا البراهين العقلية بما يتلاءم مع الوحي.

4 . علاقة الحكمة المتعالية بمباحث الأبستمولوجيا وضبط الفائدة من المباحث الفلسفية عند الملا صدرا

أ . الجمع بين الفلسفة والعرفان

لقد نجح ملا صدرا في الجمع بين الفلسفة والعرفان مستفيدا من نصوص القرآن الكريم وصحيح السنة، ولم يكتف بتذوق المعارف بالمشاهدات؛ فنتج عن ذلك الطريق منهج معرفي جديد، عُرف بالحكمة المتعالية، قال عنه الحيدري: « استطاع أن يحقّق إنجازاً ضخماً على مستوى القواعد والمباني الفلسفيّة، أدّت إلى بناء نظامٍ عقليٍّ جديدٍ قائمٍ على أسسٍ برهانيّةٍ يمكنها تفسير

العالَم الإمكانيّ وعلاقته بمبدئه المتعالي»[29]. وبهذا هذا المنهج الجديد (الحكمة المتعالية) يكون الملا صدرا قد وضع حدّا للنزاع القائم بين المشائية والإشراقية؛ وفي هذا يقول مطهري: « وقد وضع صدر المتألّهين نهايةً حاسمةً لهذا النزاع الطويل (أي بين أرسطو وأفلاطون) بالأساس الجديد الذي شاده في فلسفته....»[30].

ب . القصور العقلي والضرورة القرآنية العرفانية

إن ما يبرّر ضرورة القرآن والعرفان هو قصور العقل في إدراك ما هو خارج عن مجاله، إذ لا يمكنه الاستدلال على الحقيقة العينية للغيبيات وأحوالها، ولا أن يصل بالإدراك إلى تحديد الكيفيات التي ترضي خالقه، ولا أن ينكشف عن حقائق أسرار الكثير من تكليفات الشرع، وغير ذلك. فالإنسان بعد ارتقائه من أطوار الحس إلى أطوار الوهم إلى أطوار العقل، هو بحاجة إلى أسرار الشريعة وأنوار الولاية والنبوة حتى يحقق كماله المنشود، وهذا مما لا مجال للعقل فيه. وقد أشار ملا صدرا إلى أن البرهان العقلي أمر ضروري لكنه غير كافٍ في معرفة المراتب الكمالية[31]. وعن ظهور الحقيقة بغير العقل، بيّن أن ذاك الظهور لا يرتكز على مبدأ نفي الاستحالة العقلية لذوي الشهود . باعتبار احتمال أن يصير المحال عقلا ممكنا عقلا . لا، بل يتحقق ذاك الظهور بغير العقل أصلا؛ لأن العقل قاصر عن نيل مثل تلك الحقائق، أي ليس ذلك من مجالات العقل. قال ملا صدرا ردّا على الغزالي: « قال الشيخ الفاضل الغزالي: اعلم أنّه لا يجوز في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالته .نعم يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقصر العقل عنه، بمعنى أنه لا يدرك بمجرّد العقل. ومن لم يفرّق بين ما يحيله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخسّ من أن يخاطب فيترك وجهله.»[32].

إذن، فقصور العقل يكبح تكامل الإنسان، لذلك لابد له من عرفان، لكن ينبغي أن ينضبط ذلك بإشراف النص المقدس الضامن للهداية والواقي من الإنحراف.

ج . علاقة الحكمة المتعالية بالاستدلال البرهاني

قلنا سابقا أن صدر المتألهين بنى منهجه على أساس البرهان والقرآن والعرفان، فهو يتضمن الاستدلال العقلي ويعتمد على المنهج العقلي فيما عاينه مكاشفة بإشراف القرآن. وهذا ما يتبيّن صراحة في قوله: « ...إن مجرد الكشف غير كاف في السلوك من غير برهان كما أن مجرد البحث من غير مكاشفة نقصان عظيم في السير و الله المعين.»[33]. إلا أن الملا صدرا لم يكتف بالبرهان العقلي لإدراك الحقيقة، بل لا يرى للزوم التوقف عند إدراكها فحسب، وإنما ينبغي تذوقها عن طريق الكشف والمشاهدة. والطالب لذلك هو بحاجة إلى محورية الوحي والنصوص المقدسة، كما هو بحاجة إلى العقل والاستدلال، وهما متطابقان لا متدافعان. وقد بيّن ملا صدرا حقيقة تطابق العقل مع النقل في باب حديثه عن تجرد النفس الناطقة، وسرده للعديد من شواهد القرآن والسنة[34].

إذن لا يوجد في الحكمة المتعالية للملاّ صدرا ما يمثل تعارضا بين الفلسفة والوحي. وما أجمل ما أشار إليه "هنري كوربان" من ضرورة التوافق بين النور والبصر لمشاهدة الحقيقة، وذلك في حديثه عن التوافق بين الفلسفة والوحي عند المولا صدرا، حيث قال عنه: « يفسر حالة التفكير الفلسفي في مقدمة شرحه للكتاب الثالث من أصول الكافي للكليني(كتاب الحجة في الإمام والإمامة) كما يلي: إن الوحي القرآني نور تمكن به الرؤية ...إن التفكير الفلسفي عين تشاهد النور وتراه، ولكي يتحقق فعل الرؤية فالنور ضرورة لازمة، لكن من الواجب كذلك وجود عين يمكنها أن تنظر. فإذا حجبنا هذا النور، فلن ترى العين شيئا بعد، وإذا تعمدنا أيضا إغماض العين كما هو حال القشريين والناظرين إلى الظاهر فقط، فكذلك لن يُرى بعد أيُّ شيء...أما على العكس من ذاك، إذا اتحد التعقل الفلسفي مع الوحي السماوي، فإن ذلك سيكون نورا على نور، كما تقول آية النور»[35].

وفي حديث الملا صدرا عن منهج الصوفية، لم يبرر عدم انشغالهم بالبراهين العقلية على عدم لزومها في منهج الحكمة المتعالية الذي تبناه [36]، أما

حديثه عن محورية الوحي ومرجعيته في معرفة الحقائق، وفي بيانه لأهمية الكشف والشهود وعدم الاكتفاء بالفهم والنظر، مع التمييز بين من عَلم الحقيقة وبين من تذوّقها، قال: « ... فعلمت يقينا أن هذه الحقائق الايمانية لا تدرك إلا بالتصفية للقلب عن الهوى، والتهذيب عن أعراض الدنيا، و العزلة عن صحبة الناس...والتدبّر في آيات اللّه وحديث رسوله وآله عليهم السلام، والتسيّر بسيرة الصالحين في بقية من العمر القليل، وبين يدي السير الطويل»[37]

وما أجمل ما ذكره جوادي آملي في توصيفه لجوهر الاختلاف بين الحكمة المتعالية للملا صدرا وبين بقية العلوم الإلهية حيث قال: «الاختلاف الأساس بين الحكمة المتعالية وسائر العلوم الإلهية من قبيل العرفان النظري، والحكمة الإشراقية، والحكمة المشائية، والكلام، والحديث..أن كل واحدة من تلك العلوم تكتفي بعرض جهة واحدة من جهات العرفان، والبرهان والقرآن والوحي، ولا تتعرّض للجهات الأخرى...لكن الحكمة المتعالية تجد تكاملها في الجمع بين الأدلة المذكورة،...بناء على ذلك فالحكمة المتعالية هي الحكمة الوحيدة التي يقتنع بها الحكيم وأهل الشهود وأهل النظر.»[38].

ومن بعض الأمثلة التي يمكن أن نقدمها كشواهد على استناد الحكمة المتعالية عند الملا صدرا إلى البراهين العقلية بعد حصول الكشف نذكر باختصار:

المثال الأول: القول بأصالة الوجود هو نتيجة كشف ثم استناد إلى البرهان

مما هو معروف أن ملا صدرا كان من القائلين بأصالة الماهية بادئ الأمر، إلا أنه غيّر رأيه بعد عزلته ليؤكد أصالة الوجود واعتبارية الماهية؛ وما كان ذلك ليحدث لولا ما حدث له من كشف وشهود.[39] ثم بنى بعد ذلك العديد من البراهين العقلية مستندا إلى نصوص الوحي، وكل ذلك مبثوث في كتبه سيما كتاب الأسفار.

المثال الثاني: القول بالحركة الجوهرية هو نتيجة كشف ثم استناد إلى البرهان

كما أن القول بالحركة الجوهرية هو الآخر كان ثمرة كشف وشهود، ليبني بعد ذلك الكشف، العديد من البراهين العقلية والنقلية المبثوثة في جل كتبه، خصوصا منها مصنفه النفيس الأسفار العقلية الأربعة. وقد أشار ملا صدرا نفسه إلى هذه النقطة[40].

المثال الثالث: محاكاة الكشف والشهود للاتصال الحسي في المعرفة

يميز الفيلسوف "براتراند راسل" بين نوعين من المعرفة: المعرفة باللقاء أو الاتصال المباشر، أي التي تُدرك بالحواس مباشرةً، والمعرفة بالوصف، أي التي تنطوي على استنتاجات عقلية." أي المعرفة بالإدراك المباشر، والمعرفة بالوصف[41]. فنلاحظ هنا أن "رسل" أقر بالاتصال المباشر في المعرفة سوى أنه اختصه وقصره على الحواس، لكن المولا صدرا يتحدث عن الاتصال بالحقيقة مباشرة وتذوقها. ويتجاوز الإدراك الحسي، والإدراك العقلي للوصف. وقد أشار إلى ذلك "هنري كوربان" وهو يتحدث عن الاتحاد بين التأمل النظري والشهود العرفاني عند الملا صدرا والغاية من التطور الذي سينتهي إليه[42].

د . مصير الإنسان بين الفلسفة الغربية والحكمة المتعالية

لقد غلب على الفلسفة الغربية الاتجاه الحسي والوضعي، حتى أهمل الغربيون ما يتعلق بعالم الغيب والنفس الإنسانية، وبالتالي إهمال كل ما يتعلق بمصير الإنسان بعد الموت. بينما سدّت الحكمة المتعالية بمباحثها هذا النقص؛ فهي مع عدم إهمالها لعالم الحس والمعرفة الحسية وأيضا المعرفة العقلية كأدوات، وجهت بوصلتها نحو العوالم العليا لتبنى رؤاها باتجاه تلك البوصلة متخذة الوحي محورا لها. قال هنري كوربان: «إن فلسفة ملا صدرا.. تستلهم مبدأها من البحث في المعاد، وهذه الفلسفة تتجلى كفلسفة مبنية على الوحي تجعل في يد الإنسان أن يختار مستقبله بنفسه. وعليّ أن أعترف أن مما يحير أن الإنسان يشاهد اليوم في أوروبا نجاحا لا يخلو من ضجيج في إقامة بناء كلامي

وفلسفي مجمل يقوم على أساس من العلوم والصنائع الجديدة، ويدّعي أنه يفتح للإنسان " أبعاده العالمية"، بينما هو تماما "غير إنساني"...أما في رأي ملا صدرا وجميع أتباعه فإنه، على العكس، لا يمكن التحدث عن " الأبعاد العالمية" للإنسان إذ اعتُمد على التجربة الحسية وعلى الإنسان الجسماني فقط. إن "الأبعاد العالمية" للإنسان تستمد معناها من ارتباطه بالعوالم العليا وأحيائه في هذه العوالم.»[43]. كما أثر عن "سورن كيركجارد" القسيس الدانماركي الذي يعتبر المؤسس للمذهب الوجودي، قوله: « إنّ القرب والارتباط بالله هو الذي يجعل ابن آدم إنسانا.»[44]

هـ. ضرورة طريق العرفان في المعرفة

إن العرفان هو من ينقل النفس من علم اليقين إلى عين اليقين؛ ففرق بين من يفهم الحلاوة ومن يتذوقها، وبين من يعي الإحراق بالنار ومن يحترق بنفسه، وبين من يفهم الصحة ومن يحيى سليما، وبين من يفهم السلطنة ومن يحكم بالفعل.

ثالثا: حدود المعرفة ومجالاتها عند الملا صدرا من خلال مباحثه في المبدأ والمعاد

مرة نتحدث عن مجال المعرفة من خلال عالمي الغيب والشهادة؛ فالماديون يحصرون المعرفة بالحس، بينما تتعدى المعرفة عند المتألهين إلى ماوراء الحس وما وراء المشهود. ومرة نتحدث عن مجالات المعرفة من خلال متعلقها المعرفي ذاته أهو الجانب المتعقل أم الجانب الوجودي؟

ويمكن فهم موضوع نظرية المعرفة عند ملا صدرا، أنه هو العلم بمعنى مطلق الانكشاف فيشمل العلم الحضوري والحصولي ومن الاخير التصور والتصديق. فالمعرفة مطلق الإدراك؛ إذ تشمل الأمور الواقعية والفنون والمهارات، والعلم الحصولي والحضوري والتصوري والتصديقي، والعلم بالكون والحياة والإنسان، وتتسع لتشمل العلم بالله تعالى وبالملائكة وبالآخرة والمعاد وبكل ما هو موجود، وبذات الوجود.

إن مصادر المعرفة الغربية تنحصر في الوجود، بينما في التصور الإسلامي تشمل الوحي أيضا. فالمعرفة لدى الفكر الغربي محدودة وقاصرة على الجانب القابل للحس وللملاحظة، بينما هي في التصور الإسلامي تشمل الجوانب الغيبية. ومن ناحية ثانية: نجد أن غاية المعرفة في التصور الإسلامي هي التقرب إلى الله تعالى والسير نحوه لبلوغ كمالاتها، مستفيدة من الطبيعة بما يتلاءم مع تلك الغاية، بينما هي في التصور الغربي تهدف إلى قهر الطبيعة والسيطرة عليها. فالمعرفة في الفكر الغربي تجعل الإنسان سيدا للكون، بينما يعدّه التصور الإسلامي سيدا في الكون.

رابعا: طرق المعرفة عند المولا صدرا

1 . نظرة عامة حول مختلف طرق المعرفة

تنقسم المدارس المعرفية إلى أربعة أقسام تبعا لأدوات المعرفة المستخدمة، وهي: المدرسة العقلية، والمدرسة الحسية التجريبية، والمدرسة الإخبارية، والمدرسة الصوفية. وهذه المدارس تشترك في أمور وتفترق في أمور؛ فكلها يقرّ بوجود واقع خارجي، وبإمكانية العلم به، وأن الحق هو ما طابق الواقع. لكنها تفترق فيما بينها في ثبوت وإثبات هذا الواقع؛ فنجد أن: المدرسة العقلية التي ينتسب إليها الفلاسفة والمناطقة تعتمد على المنهج العقلي البرهاني ثبوتا للكشف عن الواقع، وإثباتا بالاحتجاج على الآخرين. والمدرسة الحسية التجريبية التي تضم الماديين التجريبين تعتمد على الحس والتجربة ثبوتا وإثباتا. والمدرسة الإخبارية التي ينتسب إليها المحدثون والمتكلمون تعتمد على الخبر والنص ثبوتا وإثباتا. إلا أنها إن اعتمدت على ذلك ثبوتا وإثباتا سُميت بالحشوية، أما إن اعتمدت على النص ثبوتا وعلى العقل إثباتا سمي أصحابها المتكلمون. والمدرسة الصوفية التي ينتسب إليها الصوفية والعرفاء تعتمد على الكشف ثبوتا وإثباتا عن طريق الرياضة والشيخ. لكنها إن اعتمدت على الرياضة ثبوتا، وعلى العقل إثباتا سُمي أصحابها بالعرفاء، أي (متكلموا الصوفية).

إلا أنه ظهرت مدارس قيل عنها أنها تلفيقية، جمعت بين بعض أدوات المعرفة آنفة الذكر نذكر منها: المدرسة الإشراقية للسهروردي التي تعتمد على منهجين؛ الكشفي الصوفي، والعقلي. ومدرسة الحكمة المتعالية التي تنسب إلى صدر المتألهين، التي تعتمد على ثلاثة مناهج؛ العقلي والصوفي والإخباري (البرهان + القرآن + العرفان). وإن كان يرجح فيها المنهج العقلي في مقام الإثبات، وتتخذ من القرآن محورا لحقائقها.

2 . تكامل الطرق في الحكمة المتعالية عند المولا صدرا من خلال اعتماده البرهان والقرآن والعرفان

لقد جمع ملا صدرا في طرق وأدوات المعرفة عنده بين البرهان والقرآن والعرفان. أي يمكن أن نحدد لمدرسته العلمية الجديدة طريقين رئيسين: طريق البحث والتعلّم والتعليم، وطريق العلم اللّدنّي الذي يحصل من طريق الإلهام والكشف والحدس وهو ما يختص بالعرفان الذي يحصل بسبب تجريد النفس عن شهواتها ولذائذها. وهكذا – كما ذهب إليه مرتضى مطهري -يكون: «الشيرازي أدخل الحكمة الإلهية إلى مرحلة جديدة، وأنه غيّر الأصول والأسس الأولى من هذا الفن، وبناه على أصول أخرى ثابتة وقويمة، وأن فلسفة ملا صدرا تشبه من جهة ملتقى أربعة طرق: 1. الحكمة المشائية الأرسطية والسينائية. 2. الحكمة الإشراقية السهروردية. 3. العرفان النظري لمحي الدين بن عربي. 4. المفاهيم الكلامية. وقد التقت إحداها بالأخرى وتلاقت كأربعة أنهر أوجدت نهرا عظيما.»[45]

ويؤكد العلامة الطبطبائي أهمية البناء الفلسفي للملا صدرا القائم على أساس التوافق بين العقل والشرع والكشف، مادام الكشف والشرع يوصلان إلى الحقائق اليقينية كما يوصل إليها البرهان العقلي، ومادام البرهان العقلي يمكنه أن يؤكد تلك الحقائق الكشفية والشرعية[46].

يمكننا مما سبق القول أن مدرسة الملا صدرا كانت موفقة في الجمع بين الشرع والعقل والكشف للوصول إلى الحقائق اليقينية المرتبطة بالوجود. لا

تنحصر في عالم المادة أو الحس أو المعقول، ولاتقتصر على الخبر فقط أو على الكشف فحسب، بل تطال عالم الغيب كما تطال عالم الشهادة، وتطال المجرد كما تطال المادي، وتطال ما يتعدى مجال العقل كما تطال مجاله، من خلال اعتمادها القنوات الثلاثة.

خامسا: بعض ما أفرزته الأبستمولوجيا العرفانية للملا صدرا من مباني الحكمة المتعالية.

1 . أصالة الوجود ووحدته وتشكيكه

يرى الملا صدرا أن الوجود متقدم عن الماهية فالأصالة للوجود والاعتبارية للماهية. كما يرى أن حقيقة الوجود هي وجود واحد ومصدر واحد تنبع عنه فيوضات متعددة، إلا أن هذا الوجود الواحد تتفاوت مراتبه.

لقد قال المشاؤون بأصالة الوجود، بينما قال الإشراقيون بأصالة الماهية. كما أن معلم ملا صدرا كان يقول بأصالة الماهية، وانتقل ذلك إلى تلميذه ملا صدرا بادئ الأمر. لكن بعد الكشف والشهود تنازل ملا صدرا عن رأيه وأصبح يقول بأصالة الوجود. ففي حديثه عن الملازمة العقلية بين الوجود والماهية قال ملا صدرا:«فالحق أن المتقدم منهما على الآخر هو الوجود لكن لا بمعنى أنه مؤثر في الماهية لكونها غير مجعولة كما مر بل بمعنى أن الوجود هو الأصل في التحقق و الماهية تبع له...»[47]

وفي هذا يقول العلامة الطبطبائي متحدثا عن منهج مولا صدرا الفلسفي:«افتتح صدر المتألهين فلسفته بمسألة " أصالة الوجود" وعطف عليها مفهوم"تشكيك الوجود". ثم أخذ يستلهم هاتين النظريتين ليبرهن من خلالهما عند كل مسألة من مسائل الفلسفة، وينهض بأسسها على أساس هاتين النظريتين.»[48].

وعليه "... فكما أن حقيقة الوجود ذات مراتب مختلفة من حيث الشدة والضعف، فلها مراتب كذلك من حيث الكمال والنقص. وأعلى مراتب الوجود هي

مرتبة الوجود الواجب حيث الكمال المحض والفعلية المحضة...وأسفل مراتب الوجود مرتبة المادة الأولى التي هي بالقوة من كل جهة، ويعتورها النقص من كل جهة أيضا...وبين هاتين المرتبتين اللتين تقع كل منهما عند أحد رأسي سلسلة الموجودات هناك مراتب ...ويدعى المفهوم المتحصل اصطلاحا بـ"الوحدة التشكيكية للحقيقة"»[49]

2 . الحركة الجوهرية

في الحقيقة ليست الحركة الجوهرية حركة من نقطة إلى نقطة، لكنها حركة من القوة إلى الفعل؛ أي من مبدأ كُمُون كل الاستعدادات الكمالية في النفس، إلى التحرك التصاعدي نحو التحقق الفعلي لتلك الكمالات؛ فهي انتقال من النقص إلى الكمال المنوط بها المناسب لها المنسجم معها والمؤهلة له.

قال ملا صدرا: «**فإذن نقول الآيات التي فيها ذكرت النطفة وأطوارها الكمالية وتقلباتها من صورة أنقص إلى صورة أكمل ومن حال أدون إلى حال أعلى فالغرض من ذكرها إثبات أن لهذه الأطوار والتحولات غاية أخيرة فللإنسان توجه طبيعي نحو الكمال ودين إلهي فطري في التقرب إلى المبدأ الفعال والكمال اللائق بحال الإنسان المخلوق أولا من هذه المواد الطبيعية والأركان لا يوجد في هذا العالم الأدنى- بل في عالم الآخرة التي إليها الرجعي و فيها الغاية والمنتهى فبالضرورة إذا استوفى الإنسان جميع المراتب الخلقية الواقعة في حدود حركته الجوهرية الفطرية من الجمادية والنباتية والحيوانية وبلغ أشده الصوري وتم وجوده الدنيوي الحيواني فلا بد أن يتوجه نحو النشأة الآخرة ويخرج من القوة إلى الفعل ومن الدنيا إلى الأخرى ثم المولى وهو غاية الغايات منتهى الأشواق والحركات وهو المراد من قوله تعالى يا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ إلى قوله وَ أَنّ اللّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ...**»[50]

وقد دعّم ملا صدرا نظريته هذه بالعديد من النصوص الإلهية المقدسة إلى جانب ما أورده من استدلالات برهانية[51]

3 . اتحاد العاقل والمعقول

لنظرية اتحاد العاقل والمعقول أهمية بالنسبة لنظرية المعرفة تتعلق بدورها في الكمال الإنساني، كما تتعلق بوحدة الوجود؛ إذ كلما تحققت المعرفة الحقة للإنسان العارف كلما ارتقى هذا الإنسان إلى كمالاته العليا. كما أن كل من العاقل والمعقول يتحدان بالتجرد عن المحسوس ليصبحا وجودا واحدا وحقيقة يقينية واحدة، وهكذا ترتقي النفس بذلك إلى أن تخرج من عالم الدنيا إلى الآخرة فتنكشف عن الحقائق التي كانت صورها في الدنيا.[52]

كما تعرّض سيد حسين نصر إلى شرح هذه المسألة بالقول:«ثمة مبدأ أساسي آخر من مبادئ الحكمة المتعالية والذي له صلة وثيقة بالمكونات الرئيسية الأخرى لحكمته، ألا وهي الاتحاد بين العاقل والمعقول. هذا مبدأ أكّده أبو الحسن العامري في القرن الرابع للهجرة وقوبل بالرفض المطلق من جانب ابن سينا والفلاسفة المسلمين المتأخرين وبعد ذلك تم أحياؤه من قبل مولا صدرا الذي أعطاه معنى جديدا يندرج في إطار وحدة الوجود والحركة الجوهرية. وفقا لصدرا، فإنه في لحظة التعقل، تصبح الصورة المعقولة بالإضافة إلى العاقل والعقل نفسه، يصبحون متحدين بحيث يصبح أحدهم عين الآخر إلى حد دوام عملية التعقل. هذا المبدأ ليس مهما لنظرية المعرفة عند مولا صدرا فحسب، ولكنه يحظى بأهمية كبرى من أجل فهم دور المعرفة في الكمال الإنساني، من خلال الحركة الجوهرية فإن فعل المعرفة يرفع جوهر العارف...إن اتحاد العاقل والمعقول يتضمن في النهاية وحدة المعرفة والوجود. إن جوهر الإنسان يتحول من خلال نور المعرفة والوجود.»[53]

خاتمـة

يمكننا أن نتوّج عصارة المسائل التي تعرضنا إليها في هذا البحث بالنقاط التالية:

1. ضرورة المرور بمرحلة التحصيل العلمي في مختلف علوم العقل والنقل للوصول إلى علم اليقين، وضرورة المرور بمرحلة الخلوة والرياضة الروحية وعمق التأمل والعرفان العملي للوصول إلى عين اليقين.

2. يمكننا اعتبار أن الأبستمولوجيا العرفانية عند ملا صدرا هي نتاج نَهَل من مجموع فلسفة ابن سيناء، والسهروردي، وابن عربي، والتراث الديني المقدس.

3. تتجه معظم كتاباته في حصر العلوم الحقيقية والمعارف اليقينيّة في العلم بالله وبصفاته وملكه وملكوته والعلم باليوم الآخر ومنازله ومقاماته ، معتبرا أن الغاية من كل تلك العلوم هي السفر إلى الله تعالى، وارتقاء الإنسان من حضيض النقص إلى أوج الكمال.

4. عدّ ملا صدرا "العلم" من الموجودات التي ينبغي أن تبحث في علم الوجود، أي له وجود خارجي، ووجود ذهني بحسب الاعتبار. وقد عُرف العلم في الفلسفة الإسلامية على أنه عبارة عن حضور ماهية المعلوم لدى العالم، فالعلم هو نوع وجود للمعلوم، وهو نوع وجود خاص يطلق عليه الوجود الذهني. ومن هنا دخلت هذه المسألة إلى بحث الوجود، وتم اعتبارها قسما من أقسام الوجود الأولية.

فكلما حضرت حقيقة المعلوم بتمامها وكمالها لدى العالم كلما اتصف بالعلم اليقيني إلى أن يصل بطريق العرفان إلى اتحاد المعلوم مع العالم فيتحقق عين اليقين وحق اليقين. مما يومئ إلى أهمية الأبستمولوجيا العرفانية في فهم حقيقة الأشياء حضوريا بالكشف، ما ينقل النفس الإنسانية من جوهر أدنى إلى جوهر أعلى وفق حركة سير تكاملية ترفعه من النقص إلى كمالاته الملائمة لوجوده.

5. الحكمة المتعالية مدرسة تختص بتتبع منهج مختلف عن كلّ المدارس المعهودة؛ فلا يُعد منهجها منهجاً مشّائياً بحتاً، ولا إشراقيّاً بحتاً، ولا صوفيّاً، ولا كلاميّاً. ولا هي مدرسة لفلسفةً تجميعيّة، بل تمتلك بناءها الفلسفيّ الخاص المميز، وإن كانت تتضمن مزيجا من كلّ تلك المناهج والمدارس فهي عند ملا صدرا مزيج من البرهان والعرفان والقرآن، أي من العقل والكشف والشرع، ويمثل الوحي المحور الرئيس.

6. لا يوجد في الحكمة المتعالية ما يتعارض بين العقل والوحي، ولا ما يتعارض بين الكشف والعقل، ولا ما يتعارض بين الوحي والكشف.

7. الحكمة المتعالية لا تلغي البرهان والاستدلال العقلي، بدليل استخدام الملا صدرا للعديد من البراهين العقلية في إثبات ما انكشف له شهودا كما ذكر.

8. إن ما يبرّر ضرورة القرآن والعرفان هو قصور العقل في إدراك ما هو خارج عن مجاله.

9. الأبستمولوجيا العرفانية عند ملا صدرا ليست خرافية بدليل الشهود والوحي، لكنها غير كافية لإثبات الحقيقة، إذ تحتاج إلى دعم استدلالي برهاني وقرآني. وهذا لا يعدم أهميتها في تحقيق الحركة الجوهرية المتصاعدة في رقي النفس من النقص إلى الكمال بحسب اتحاد العاقل والمعقول، وتقلب النفس من القوة إلى الفعل، ما يبرر فعالية المعرفة العرفانية في هذه الدنيا طوعا وجهدا، وحتميتها في الآخرة جبرا وعدلا.

10. إن ما يشير إلى أهمية الأبستمولوجيا العرفانية، هي ما حققه ملا صدرا نفسه من أطروحات برهانية عميقة، واستنادات قرآنية دقيقة، كانت نتيجة التحول الذي حصل له في مرحلة انزوائه التي أمضاها في الرياضة والإخلاص وجهاد النفس.

11. لقد أفرزت الأبستمولوجيا العرفانية للملا صدرا نظريات بلغت من العمق، في تفسير الحقائق الوجودية وقضايا المبدأ والمعاد، ما فاق سابقيه من المشائين والإشراقين؛ فمن خلال المكاشفات والمشاهدات العرفانية توصل الملا صدرا إلى طرح نظرياته فيما يتعلق بأصالة الوجود ووحدته وتشكيك مراتبه، وفيما يتعلق بالحركة الجوهرية، وباتحاد العاقل والمعقول، وغير ذلك.

12. لقد جمع ملا صدرا في طرق وأدوات المعرفة بين البرهان والقرآن والعرفان.

13. يرى الملا صدرا أن الوجود متقدم عن الماهية فالأصالة للوجود والاعتبارية للماهية. كما يرى أن حقيقة الوجود هي وجود واحد ومصدر واحد تنبع عنه فيوضات متعددة كما سبق وأن ذكر ذلك ابن عربي قبله، إلا أن هذا الوجود الواحد تتفاوت مراتبه أي أنها ليست متواطئة بل مشككة تتفاوت شدة وضعفا ونقصا وكمالا وفقرا وغنى وتقدما وتأخرا، ونحو ذلك. كالنور الذي يمثل وجودا واحدا لحقيقة النورانية، إلا أن نور الشمعة أضعف من نور المصباح، ونور المصباح أضعف من نور الشمس، والكل نور.

14. لنظرية اتحاد العاقل والمعقول ذات أهمية بالنسبة لنظرية المعرفة وهي تتعلق بدورها بالكمال الإنساني، كما تتعلق بوحدة الوجود؛ إذ كلما تحققت المعرفة الحقة للإنسان العارف كلما ارتقى هذا الإنسان إلى كمالاته العليا.

الهوامش :

1 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ط3، 1981م، ج7، ص326.

2 انظر: آملي، جوادي وآخرون، حكمة صدر المتألهين المتعالية، الباب الثاني من كتاب، ركائز فلسفة صدر المتألهين، بيروت، دار المعارف الحكمية، ط1، 2008م، ص37.

3 انظر ترجمته في مقدمة كتابه: تفسير القرآن الكريم، ملا صدرا، تحقيق محمد الخواجوي، قم، منشورات بيدار، ط2، 1408هـ، ج1، ص11.

4 ينظر إلى أقواله حول هذه المراحل من حياته في: ملا صدرا، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، مرجع سابق، ج1، ص4-8.

5 آملي، جوادي وآخرون، حكمة صدر المتألهين المتعالية، مرجع سابق، ص38، 39.

6 بدران،حسن يحيى، البنية الفلسفية للمعرفة عند ملاّ صدرا، بيروت،دار الولاء،ط1،2008م، ص 15.

7 كربان، هنري وآخرون، مقام صدر الدين الشيرازي في الفلسفة الإيرانية، الباب الرابع من كتاب، ركائز فلسفة صدر المتألهين، بيروت، دار المعارف الحكمية، ط1، 2008م، ص104.

8 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، مرجع سابق، ج1، ص13.

9 كربان، هنري وآخرون، مقام صدر الدين الشيرازي في الفلسفة الإيرانية، مرجع سابق، ص103.

10 انظر: حسيبة، مصطفى، المعجم الفلسفي، الأردن، دار أسامة، 2012م، ص624.
وانظر: صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، 1414هـ، ج1، ص33.

11 انظر: اليزدي، محمد تقي مصباح، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، ترجمة محمد الخاقاني، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ط4، ج1، ص153.

12 انظر: صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ج2، ص72.

13 العجم، رفيق، موسوعة مصطلحات التصوف، بيروت، مكتبة لبنان الناشرون، ط1، 1999م، ج1، ص638.

14 مطهري، مرتضى، العرفان، ترجمة عباس نور الدين، بيروت، دار الرسول الأكرم، ط2، 2002م، ص 11-53-74.

15 المرجع السابق، ص 12.

16 انظر: الآملي، حيدر، أنوار الحقيقة وأطوار الطريقة وأسرار الشريعة، قم، منشورات نور على نور، ط1، 1424هـ، ص27.

17 مطهري، مرتضى، العرفان، مرجع سابق، من ص 13 إلى 23.

18 انظر: الآملي، حيدر، أنوار الحقيقة وأطوار الطريقة وأسرار الشريعة، مرجع سابق، ص28.

19 صدر المتألهين، تفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، ج1، ص131.

20 الجرجاني، شريف علي بن محمد، كتاب التعريفات، طهران، نشر ناصر خسرو، ط4، 1412هـ، ص 41.

21 مطهري، مرتظى، مدخل إلى الفلسفة، إيران، دار نور المصطفى، ط 2007، ص125.

22 صدر المتألهين، المبدأ و المعاد، طهران، طبع منتدى الحكمة و الفلسفة في إيران،د.ت،ص 6.

23 صدر المتألهين، مفاتيح الغيب، بيروت، دار التعارف، 1983م، ج9، ص323.

24 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، مرجع سابق، ج2، ص307.

25 صدر المتألهين، المبدأ والمعاد، مرجع سابق، ص 496.

26 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، مرجع سابق، ج 1، ص9.

27 صدر المتألهين، المبدأ والمعاد، مرجع سابق، ص 496.

28 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، مرجع سابق، ج1، ص85.

29 الحيدري، كمال، دروس في الحكمة المتعالية،إيران، دار الصادقين، ط1،1999،ج1، ص105.

30 مطهري، مرتضى، أصول الفلسفة والمذهب الواقعي قم،مؤسسة أم القرى،ط2، 1422 هـ،ج1، ص13.

31 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، مرجع سابق، ج7، ص322.

32 المرجع السابق، ج7، ص322.

33 المرجع السابق، ج7، ص326.

34 المرجع السابق، ج8، ص303.

35 كربان، هنري، مقام صدر الدين الشيرازي في الفلسفة الإيرانية، مرجع سابق، ص117.

36 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، مرجع سابق، ج6، ص284.

37 صدر المتألهين، تفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، ج1، ص23.

38 آملي، جوادي، حكمة صدر المتألهين المتعالية، مرجع سابق، ص من 27 إلى 31.

39 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، مرجع سابق، ج1، ص49.

40 نقلا عن آملي، جوادي، حكمة صدر المتألهين المتعالية، مرجع سابق، ص48.

41 انظر: زيدان، محمود، نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 1989م، ص12.

42 كربان، هنري، مقام صدر الدين الشيرازي في الفلسفة الإيرانية، مرجع سابق، ص105.

43 كربان، هنري، مقام صدر الدين الشيرازي في الفلسفة الإيرانية، مرجع سابق، ص125.

44 اليزدي، محمد تقي مصباح، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، مرجع سابق، ج1، ص40.

45 بدران، حسن يحيى، البنية الفلسفية للمعرفة عند ملاّ صدرا، مرجع سابق، ص10.

46 الطبطبائي، محمد حسين وآخرون، صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي، مجدد الفلسفة في القرن الحادي عشر الهجري، الباب الأول من كتاب، ركائز فلسفة صدر المتألهين، بيروت، دار المعارف الحكمية،، ط1، 2008م، ص8.

47 صدر المتألهين، الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، مرجع سابق، ص 7.

48 الطبطبائي، محمد حسين، صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي، مجدد الفلسفة في القرن الحادي عشر الهجري، مرجع سابق، ص 9.

49 المرجع السابق، ص من 9إلى12.

50 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، مرجع سابق، ج9، ص159.

51 صدر المتألهين، تفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، ج1، ص112-113.

52 صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، مرجع سابق، ج1، ص289.

53 نصر، سيد حسين وآخرون، تعاليم صدرا، ترجمة عماد بزي، الباب الثالث من كتاب، ركائز فلسفة صدر المتألهين، بيروت، دار المعارف الحكمية، ط1، 2008م، ص 27، إلى 31.